المعرفة ليست دائرة سَلَفيّة مغلقة وثابتة

في دراسته القيمة حول موقف بعض الجماعات الإسلامية من الغرب والتي نشرتها مجلة «العربي» الكويتية في عددها رقم 402 الصادر في شهر مايو 1992م ، أجرى المفكر الإسلامي حسين أحمد أمين مقاربة تاريخية بين هذا الموقف وبين موقف مماثل له في الاديان الأخرى ، مشيراً إلى أن التجارب التاريخية دلت على ظهور جماعات دينية إنعزالية في المجتمعات التي تمر بهزات عنيفة ، حيث تميل هذه الجماعات إلى إغلاق الأبواب أمامها وتنزع إلى العيش في طوطم أو(جيتو) خاص بها ، وتتجنب الانفتاح أو الاتصال بالتيارات العلمية والفكرية التي عرفتها مجتمعاتهم في أوقات مختلفة .

ويوضح د. حسين أمين فكرته بتفصيل أدق بقوله : « كان هذه هو ما حدث أيضاً في العالم الإسلامي مع بداية الثلاثينات من هذه القرن حين بدأت جماعات اسلامية تُروِّج لدعوة شديدة الاختلاف عن دعوة المصلحين الإسلاميين من أتباع الطهطاوي ومحمد عبده ، بل ورأت في هؤلاء المصلحين دعاة للتغريب والعلمانية ، إذ هم لم يطعنوا في قيم الغرب بل انتحلوها للاسلام» .

ويضيف حسين أمين قائلاً : " ذهبت هذه الجماعات بدءاً من الإخوان المسلمين إلى أن الإسلام بمفرده قادر على التصدي لهذه التحديات دونما حاجة إلى اقتباس من حضارات أخرى ، غير أنهم لم يفلحوا إلا في ابراز حفنة من النقاط والقضايا التي ركزوا عليها والحّوا في تكرارها إلى حد الإملال واعني بها موضوع الربا وفائدة البنوك وسفور المرأة وتحديد النسل والحدود ، والنفور من استخدام مناهج البحث العلمي والتاريخي في العلوم الانسانية .. ولذلك فان مفهوم المعرفة والمعلومات عندهم انها ثابتة وخالدة وقد نجم عن ذلك ثلاث عواقب :

أحمد الحبيشي

الأولى : أن المعرفة عندهم لم تعد عنصراً ابداعياً ديناميكياً في الفكر مما اسهم في قهر كل نشاط فكري حر بدعوى مخالفته لعقيدة السلف .

الثانية : أن اعتبار المعرفة دائرة مغلقة وثابتة ، يجعل من الصعب تقبل او ابداع المعارف الجديدة ما لم تجد لها سنداً في فكر السلف الأقدمين .

الثالثة : أن سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف لا التحليل والاستنباط والتجربة والفكر الحر ، وكلها عواقب خلقت عند غير المسلمين تصوراً خاطئاً بأنه لا يمكن أن يكون للإسلام مستقبل ما دام عاجزاً عن مسايرة التطور " (راجع ايضاً كتاب مجلة العربي : " الإسلام والغرب " ـ يوليو 2002م) .

في هذا السياق لاحظ كل من الدكتور اسحاق الحسيني في كتابه (الإخوان المسلمون) ، والأستاذ غازي التوبة في كتابه (الفكر الإسلامي المعاصر) ، ان حسن البنا وعبدالقادر عودة وسيد قطب الذين قضوا نحبهم اغتيالاً أو إعداماً ، كانو اكثر سلفية وتصلباً وميلاً للعنف، بينما مثلت المدرسة الإخوانية السورية (مصطفى السباعي، محمد المبارك و معروف الدواليبي)، نهجاً منفتحاً ازاء الفكر الحديث . فقد شارك السباعي والمبارك في الإنتخابات البرلمانية في الخمسينات، وتزعما » الجبهة الإسلامية الإشتراكية « في البرلمان السوري عام 1959م ، كما كتب المرشد العام للإخوان في سوريا كتابه الشهير « اشتراكية الإسلام» عام 1959م . اما المدرسة الأردنية فقد اتجهت في الخمسينات الى العنف بعد ضرب الإخوان المسلمين في مصر على اثر محاولة اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر عام 1954م ، حيث أسس تقي الدين النبهاني ما يسمى (حزب التحرير الإسلامي) مشدداً على إقامة دولة الخلافة قبل أي إصلاح للأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية، فيما اتجهت جماعات اخرى خرجت من تحت عباءة الإخوان المسلمين الى التكفير والعنف ، مثل الجماعة الإسلامية، جماعة الجهاد ، جماعة التكفير والهجرة ، الجماعة السلفية للدعوة والقتال ، جماعة انصار الشريعة ، وجماعة « المهاجرون « ...الخ ، وفتحت هذه الجماعات الطريق واسعاً امام النزعات الجهادية المسلحة التي نشأت على تربة الجهاد الأفغاني حيث تزاوجت الأفكار السلفية التقليدية والأفكار السلفية والوهّابية المتشددة مع أفكار الجهاد التكفيري ، وأنجبت في وقت لاحق الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والنصارى ، وذراعها العسكري المعروف بتنظيم « القاعدة » .

يحلو للخطاب السلفي الشعبوي الراديكالي أن يستشهد في بعض مداولاته الفكرية بالتجربتين اليابانية والصينية اللتين تمكنتا من النهوض بعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية ، وانتصار الثورة الصينية بقيادة ماو تسي تونغ دون أن تتراجعا عن اصوليتهما الكونفوشية ، بيد أن هؤلاء يتجاهلون ميكانيزمات القدرة اليابانية والصينية على الاستجابة للتحديات الحضارية ، فقد وقع الخطاب السلفي العربي في وهم تاريخي عندما فاته التمييز بين الاستعمار الغربي الحديث ومن ورائه حضارته الرأسمالية الجديدة وبين الحملات الصليبية وإرثه من العصور الوسطى، حيث ركزت اليابان والصين على الطابع الرأسمالي للحضارة المعاصرة، ثم استوعبتا قيمها الحديثة وتلاقحت معها في سياق حضاري مشترك ، بعيداً عن أي توصيف ديني او ثقافي او جهوي ، بعكس ما يفعله الخطاب السلفي في العالم العربي والإسلامي حين يصر على توصيف الحضارة المعاصرة جهوياً (الغربية) او دينياً (المسيحية) !!

السلفيون يعتبرون المعرفة دائرة مغلقة وثابتة ، ويرفضون قبول أو ابداع المعارف الجديدة ما لم تجد لها سنداً في فكر السلف الأقدمين . والمعرفة عندهم لم تعد عنصراً إبداعياً ديناميكياً في الفكر ، مما اسهم في قهر كل نشاط فكري حر بدعوى مخالفته لعقيدة السلف .. أما سبيل اكتساب المعرفة بحسب مذهبهم فهو تجميعها من كتب الأسلاف أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف. لا التحليل والاستنباط والتجربة والتفكير النقدي الحر .

من جانبه يرى الدكتور هشام شرابي في كتابه الشهير (المثقفون العرب والغرب : عصر النهضة(1879-1914) الذي نشره باللغتين الانجليزية والفرنسية وترجمته الى العربية دار النهار في بيروت عام 1971م ، أن السلفية نجحت في صد الحملات الصليبية ولم تنظر اليها كحرب دينية مع انها كانت تشتمل على شيء من هذه ، بل اطلقت عليها اسم حروب الفرنجة ، ثم نامت بعدها مطمئنة إلى انتصارها التاريخي وإلى تفوقها على الغرب المسيحي الفرنجي ، الأمر الذي فوّت عليها ادراك معنى خمسة قرون من النهضة الحضارية الانسانية الحديثة ، ومن التحولات الجوهرية غير المعهودة من قبل في مجالات الفكر والعلوم والاجتماع والتقنية ، وكانت النتيجة أن خسرت معارك الحرب بعد أن فاتها الاسهام في معركة الحضارة ، ولم يظهر عليها انها استوعبت الأبعاد الكاملة لأزمتها التاريخية بعد تلك الهزائم إذْ لم تقدم استجابة حاسمة للتحدي بعد !!.

يقيناً أن ثمة حاجة ماسة لمعالجة فجوة التخلف الحضاري التي يعيشها العالم العربي والإسلامي .. ولا يمكننا عبور هذه الفجوة الأ بإكتشاف الإسلام في داخل هذه الحضارة التي أعطت الإنسان انجازات عظيمة ، ونقلت حياته الى مستوى متطور، حيث تعلق البشرية على منجزاتها العلمية والتقنية تطلعات مشروعة لتجاوز مشاكل الفقر والتخلف والمرض .

مامن شك في أن التمسك بالخطاب الثقافوي السلفي الملتبس بالدين سيقودنا اما الى الانعزال عن العالم الواقعي وبالتالي تعميق الفجوة الحضارية ، او الخضوع للقوى الكبرى ولما يريده ورثة الخطاب الاستعماري في الغرب ، وهو خطاب ثقافوي أيضاً يسعى الى فرض خيارين لا ثالث لهما : خيار الانعزال او خيار الخضوع!!

لعل المطلوب هو إحياء الأفكار التي بشر بها رواد التنوير وتطويرها بعد إعادة قراءتها بالنظر الى المتغيرات الهائلة التي حدثت في بنية الحضارة المعاصرة خلال القرنين الماضيين ، وتجاوزت بالضرورة محددات سؤال النهضة الذي طرحه رواد فكر التنوير في العالم العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر ، لأن إحياء فكر رواد التنوير يؤهلنا لاكتشاف القيم الحضارية الحديثة ، وهي لا تتعارض بالضرورة مع القيم الإسلامية الصحيحة والأصيلة .. مع الأخذ بعين الاعتبار ان الحضارة الإسلامية أسهمت في صنع القيم الانسانية للحضارة الحديثة عبر سيرورة التحولات الحضارية .

التمسك بالخطاب الثقافوي السلفي الملتبس بالدين سيقودنا أما إلى الإنعزال عن العالم الواقعي وبالتالي تعميق الفجوة الحضارية ، أو الخضوع للقوى الكبرى ولما يريده ورثة الخطاب الاستعماري في الغرب ، وهو خطاب ثقافوي أيضاً يسعى الى فرض خيارين لا ثالث لهما : خيار الإنعرال أو خيار الخضوع!!

ولا ريب في أن الثقافة السلفية البدوية التي نزعت الى موروث الجاهلية بعيداً عن جوهر الإسلام ، غير مؤهلة لاكتشافه داخل حضارة العصر ، ناهيك عن ان النزعة الماضوية لهذه الثقافة كان لها دور كبير في وجود هذه الفجوة الحضارية، والحيلولة دون عبورها منذ ظهورها في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، اللذين يؤرخان لبدآية تراجع الحضارة الإسلامية.. وعليه فان نقد هذه الثقافة يبدأ بإعادة الاعتبار للعقل الذي تعرض للعدوان والتغييب على يدها منذ حوالي تسعمائة عام !!

وحين نعيد الاعتبار للعقل ورواده الأوائل، سيصبح بالإمكان التخلص من تأويل هذه الثقافة للإسلام ، وهو تأويل عاد بنا الى ثقافة الجاهلية وابتعد كثيراً عن الإسلام. ولابد أن يتكامل هذا النقد مع نقد آخر مواز لمظاهر الخلل في الحضارة المعاصرة ، وهو الخلل الذي يغذي الكثير من الإختلالات المسؤولة عن غياب التوازن في ميدان انتاج واستهلاك الحضارة ، وتهميش غالبية شعوب وبلدان الكرة الأرضية ، ووقوع أكثر من نصف البشرية تحت خط الفقر , وتصاعد نزعات الهيمنة والسيطرة التي تسعى الى تكريس التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية في العلاقات بين الدول والشعوب والثقافات , وصولاً الى بروز ميول خطيرة تتجه نحو مصادرة التنوع الثقافي عبر فرض بعد واحد للسياسة الدولية والحضارة العالمية .

وحتى لا نخطئ الطريق يتوجب القول بأننا لسنا وحدنا من يهمه هذا النقد، فهناك اوساط أكاديمية وإجتماعية ودينية من الغرب والشرق تشارك على حد سواء في نقد مظاهر الخلل الذي يشوه بعض جوانب الحضارة الحديثة ، ولذلك فإن نقدنا لهذه الحضارة يجب أن ينطلق من الإيمان بالقيم الإنسانية المشتركة لمختلف الثقافات والأديان والأمم التي يوحدها مصير مشترك .. بمعنى أن يتكامل نقدنا للآخر مع النقد الذاتي الذي سبقتنا اليه قوى حية في الغرب أسهمت ولاتزال تسهم في نشر مبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان والسلام والمساواة والتسامح الديني والتضامن الإنساني ، وتصدت ولاتزال تتصدى لنزعات السيطرة والهيمنة والإلغاء ، وتدعوا الى الحفاظ على البيئة وحماية الطبيعة وإعلاء القيم الإنسانية المشتركة .

خلاصة القول ان نجاحنا في النقد الإيجابي لمظاهر الخلل في الحضارة العالمية السائدة يتوقف على مدى نجاحنا في تأسيس رؤية ثقافية منفتحة على الآخر ، ومحفزة للعقل بوصفه أداة للتفكير الموضوعي والبحث العلمي ، الأمر الذي من شأنه أن يساهم في تطوير فهمنا للعالم والتفاعل مع متغيراته وتجاوز رواسب الجمود والتعصب والإنغلاق وغيرها من الكوابح التي تكرس الإقامة الدائمة في الماضي ، وتحول دون الخروج من فجوة الانقطاع الحضاري ، وصولاً الى الانتقال من ثقافة الانغلاق الى ثقافة المشاركة ، وهو المدخل الوحيد لمشاركة الشعوب والأمم والثقافات المختلفة في حراك الحضارة الإنسانية المعاصرة .

عن صحيفة (26 سبتمبر)

ما هو أبعد من الإرهاب

د. تركي الحمد

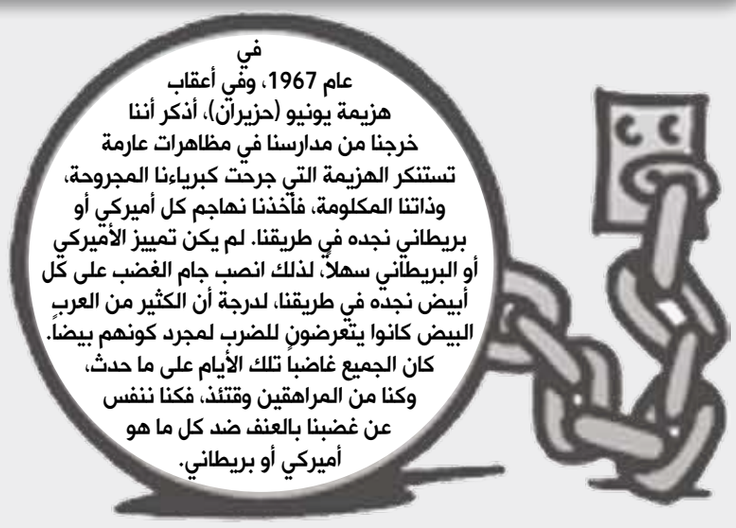

لماذا هاتان الجنسيتان بالتحديد؟ بكل بساطة لان إعلامنا العربي حينذاك، وخاصة الإعلام المصري رد الهزيمة إلى التدخل الأنجلو أميركي إلى جانب القوات الإسرائيلية المحتلة، وأن مؤامرة قد دبرت بليل حالك السواد للقضاء على «المارد» العربي، أو ما قيل لنا أنه مارد عربي، ومنع نهضة العرب من جديد.

وفي حرب اكتوبر عام 1973، كان إعلامنا يصدح ليلاً نهاراً بأنه لولا التدخل الأميركي إلى جانب إسرائيل، لكانت جيوش العرب قد وصلت إلى شواطئ حيفا وسواحل تل أبيب. بل وقبل كل ذلك، وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية تحديداً كان كل شيء نرجعه إلى تلك المؤامرة التي يحيكها الغرب ضدنا لضرب القومية العربية، حين كان المد القوموي هو سيد الساحة، أو لضرب الإسلام، حين أصبح المد الإسلاموي هو سيد الساحة، وعد بلفور، التعاون البريطاني مع العصابات الصهيونية، الاعتراف الأميركي بإسرائيل، العدوان الثلاثي، إلى آخر الأدبيات التي يعرفها كل عربي. بل أن الجميع، قوميين وإسلامويين، يتفقون على أن الكيان الصهيوني ما أقيم على أرض فلسطين إلا لشق الكتلة العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج، كخنجر غرز في الجسد العربي الواحد، في الخطاب القوموي، أو لمنع قيام كيان إسلامي واحد وامتهان مقدسات الإسلام والمسلمين، وفق الخطاب الإسلاموي.

قد يكون في كل ما قيل شيء من الصحة، ولكنه لا يمكن أن يكون صحيحاً كل الصحة فيما لو أردنا القيام ببحث موضوعي في هذه الناحية. والحقيقة أنه ليس مجال الحديث هنا فلسطين والقضية الفلسطينية، بقدر ما أنه مدخل لمناقشة قضية أصبحت شاغل الجميع هذه الأيام، ألا وهي قضية الإرهاب وما يقف عليه من أساس نظري هو التطرف وفكر التطرف. ففي معظم الأحوال تشخص هذه الظاهرة، أي ظاهرة الإرهاب، من قبل إعلامنا ومؤسساتنا الرسمية على أنها ظاهرة معزولة أو وافدة أو غير ذات جذور في التربة الاجتماعية والثقافية المحلية، المعبر عنها بخطاب إعلامي يتجاهل ما هو دون سطح الأرض ليدين ما هو فوق السطح، فنكون بذلك كذاك المريض الذي يحاول إقناع نفسه أن ما يعاني من ألم هو مجرد صداع بسيط يذهبه قرص من الأسبرين، بينما هو يعاني حقيقة الأمر ورما في الدماغ يحتاج إلى عملية جراحية كاملة كي يُستأصل. قناعة المريض، أو حتى رغبته في أن يكون الأمر كذلك، بأن ما يعاني منه مجرد صداع بسيط لن يُقضي على المرض، بل أنه سيجذره أكثر، ويكون المريض في النهاية هو الجاني على نفسه. ما نحتاج إليه في معالجة هذه الظاهرة المتصاعدة من الإرهاب وفكره، هو الشفافية المطلقة في مناقشة الأمور، ووضع الإصبع على الجرح مباشرة، دون محاولة لخداع النفس لن يكون ضحيتها في النهاية إلا ذات النفس.

مشكلتنا لا تكمن في مجرد عدد من الأفراد يقومون بعملية إرهابية هنا وعملية إرهابية هناك، بقدر ما هي أزمة عامة انفجرت في آخر المطاف على شكل فعل إرهابي، وستبقى تنفجر بين الحين والآخر بشكل دوري ربما، فيما لو لم تعالج جذور هذه المشكلة، ومن هنا تكمن أهمية الشفافية وعدم تجاهل أي شيء وكل شيء. هذه الأزمة ليست وليدة اليوم، بل هي كامنة في مجمل خطابنا الثقافي والإعلامي المعاصر، لا فرق في ذلك بين قومية أو إسلاموية أو حتى يسارية، ففي النهاية كلها آيديولوجيات تقوم وتحيا على وجود عدو إن لم يكن موجوداً فيجب خلقه. فالقوميون في أدبياتهم كانوا يلقنوننا دوماً أن الغرب الاستعماري هو عدو الأمة والمانع لتحقيق أحلامها في الوحدة والنهضة، سواء كانت أوروبا هي من كانت تمثل الغرب بالأمس، أو هي أميركا اليوم، المهم أن هذا «الآخر» الغربي الاستعماري هو العدو. والإسلامويون في أدبياتهم يقولون إن الغرب لم يتغير ولن يتغير، فهو صليبي دائماً وسيبقى صليبياً معادياً لدين الإسلام لأنه، أي الإسلام، هو ضده الحضاري القادر على زحزحته عن مركزه في قيادة البشرية اليوم. وبمثل ما أن عالم الأمس تحرر بظهور الإسلام، فإن عالم اليوم لن يتحرر إلا بعودة الإسلام. الغرب الصليبي هو العدو وهو من تجب مقارعته في النهاية. واليساريون يبشرون بأن الإمبريالية هي العدو، سواء كانت إمبريالية أوروبا بالأمس أم إمبريالية أميركا اليوم. الإمبريالية هي التي تقف في وجه تحقيق التقدم والتحرر والمساواة، وبالتالي فإنها هي العدو الذي تجب مقارعته. وبذلك فإن كافة هذه الآيديولوجيات تنتهي في النهاية إلى مصب واحد، لتكون خطاباً واحداً في النهاية يُصب في العقل العربي بمختلف الوسائل، هو معاداة الآخر، والآخر الغربي بشكل خاص.

لقّنا ذلك في مدارسنا ومساجدنا وجامعاتنا وأنديتنا ووسائل إعلامنا، فهل من العجيب أن لا ننشأ ونحن ننظر إلى العالم من حولنا نظرة شك وريبة وعدم ثقة؟ يضاف إلى ذلك كله أن هذا الخطاب اختزل كل آليات الآخر المعادي «الاستعمار أو الصليبية أو الإمبريالية» لإخضاعنا في آلية مستديمة واحدة ألا وهي المؤامرة. فهذا العدو لا يكل ولا يمل من التآمر علينا خاصة، لأهمية ديارنا في مقابل كل ديار العالم. فلدينا النفط وكل تلك الثروات الهائلة، ولدينا الموقع المتوسط الفريد، ولدينا فوق كل ذلك الحضارة التي لو «بعثت» من رقادها، كما في الأدبيات القومية، أو كانت هنالك «صحوة» دينية تنفخ الروح في الجهاد، تلك «الفريضة الغائبة»، وتعيد الأمة إلى مركز القيادة في هذا العالم، وتعيد العالم إلى الأمة التي هي خير الأمم، كما هو منطق الإسلاموية المعاصرة. كل هذا النفخ المبالغ فيه في الذات، جعلنا نتوهم، أو نصاب بفوبيا شنيعة من أن كل شيء حولنا يتآمر علينا، فلا نثق بأحد ولا يثق بنا أحد بالتالي، فينبع من ذلك كله آيديولوجيات على مختلف الأنواع، وحسب مختلف الظروف والمراحل، التي تدعو إلى تدمير هذا المتربص بنا دوماً، فتجد الكثيرين ممن يؤمن بها دون فعل، ولكنها في النهاية تجد من يؤمن بها بفعل، وهنا ينفجر الإرهاب في حالتنا.

الإرهاب ليس وليداً يتيماً أو عديم الأب والأم، بقدر ما أنه نتيجة لمقدمات كانت تحاول الإفصاح عن نفسها في كل حين، ولكننا كنا نغض البصر ونصم الأذن عن كل ذلك، ولأسباب مصلحية، سياسية وغير سياسية آنية حيناً، أو هي لأسباب تتعلق بكبرياء ذات نُفخ فيها حتى أصبحت لا تريد أن ترى حقيقة وضعها أحياناً أخرى، أو كلا الأمرين معاً. فإذا أردنا أن نعالج هذه الظاهرة حقاً وفعلاً، فعلينا الاعتراف بأننا جميعاً أسهمنا في مثل هذا الوضع، حين تجاهلنا مشاكلنا حتى وصلت إلى مستوى الأزمة، وحين حاولنا علاج تلك المشاكل بالانتقال من آيديولوجيا إلى آيديولوجيا مختلفة شكلاً، ولكن المضمون خطاب واحد في النهاية. كلنا أسهمنا في تلك الأوضاع التي أدت إلى الأزمة التي كانت أساس الفعل، حين بحثنا عن الحلول في الخطاب، وتبين لنا أن الخطاب هو المعضلة، ومع ذلك لا نزال من المكابرين، فلا نعترف بمكمن الخطأ، فنعمق الأزمة وتدوم العلة.

بطبيعة الحال لن يختفي العنف من حياة الإنسان مهما فعلنا، فهو جزء من قدر الإنسان، ولسنا نعيش في جنة الخلد. ولكن عندما ينتقل عنف ذو طبيعة معينة، من حالة الحادثة إلى حالة الظاهرة، فلا بد أن هنالك مشكلة..لا بد أن هنالك مشكلة.

مفكر سعودي